المحاضرة العاشرة: النماذج البشرية

قد يقوم الكاتب بتصوير نموذج لإنسان تتمثل فيه مجموعة من الفضائل أو الرذائل أو من العواطف المختلفة التي كانت من قبل في عالم التجريد، وينفث الكاتب في نموذجه من فتنة ما يخلق منه في الأدب مثالا ينبض بالحياة، أغنى في نواحيه النفسية وأجمل في التصوير، وهذا ما نقصده بالنموذج البشرية، وطبيعي أن الأدب المقارن لا يحفل بدراسة هذه النماذج إلا إذا صارت عالمية، فانتقلت من أدب إلى أدب، وقد تحتفظ في انتقالها ببعض خصائص كانت لها في الأدب الذي نشا فيه، وتكتسب مع ذلك خصائص أخرى تبعد بها قليلا أو كثيرا عن منشئها الأول وهذه النماذج أنواع:

1. النماذج الإنسانية العامة

وفيها يتعرض الباحث للكشف عن الوسائل الفنية التي صور بها الكتاب في آداب مختلفة نموذجا إنسانيا عاما في المسرحيات أو القصص أو الشعر الغنائي، ومثل هذه النماذج لا تعد في الأدب المقارن إلا إذا انتقلت تاريخيا من أدب إلى أدب. مثل نموذج "البخيل" فقد كتب موليير مسرحيته الشهيرة: البخيل، وفيها صور موليير شخصية "أرباجون" نموذجا إنسانيا للبخل، وقد ظهرت في المسرحية أثار هذا البخل الأليمة في أبناء ذلك البخيل، مما أكسب هذه الملهاة طابعا به يقرب الضحك المر من البكاء، وتوالت بعد ذلك المسرحيات في الآدب الأوروبية والعربية تصور نموذج البخيل، ومنها كتاب "البخيل" لمارون النقاش التي كانت تحاكي مقتضى الحال في البلاد العربية سياسيا واجتماعيا وثقافيا، فأخذت تتحول الفكرة بسبب العامل الاقتصادي والاجتماعي والسياسي والديني من منطقة إلى أخرى.

2. نماذج أسطورية

ويختار الكاتب منها ما يتسع للتأويل الخصب، وما يتحول معناه إلى رمز فلسفي أو اجتماعي، مثل شخصية "أوديب" في مسرحية سوفوكليس، والتي تأثر بها الكاتب توفيق الحكيم وكتب مسرحية "الملك أوديب". والتي صورت شخصية أوديب تلك الشخصية الأسطورية التي كان قدرها أن يقتل والده ويتزوج أمه دون أن يدري لينتهي به المطاف إلى فقإ عينيه.

3. نماذج دينية

وهي مأخوذة عن الكتب المقدسة، وغالبا ما يبعد بها الكتاب أو الشعراء قليلا أو كثيرا من مصادرها، وطبيعي أنا لا نحفل هنا إلا بالشخصيات العالمية، أي التي انتقلت من أدب أمة إلى أدب أمة أخرى، ومنها شخصية "يوسف" وشخصية "زليخا" في الأدب الفارسي، كما أخذتا عن القرآن، ثم عن التوراة وشرحها. فقد صورهما الشاعر الفارسي عبد الرحمن الجامي وبعد بها عما نعرفه في القرآن، بل وضحت صورتها الصوفية.

انتشرت قصة يوسف وزليخا في العالم الإسلامي، انطلاقا من القرآن الكريم. فنظم فيها الشعراء والقصاصون في فارس، منهم عبد الحميد الجامي ...وغيره. انتشرت قصة يوسف وزليخا في القارة الأوروبية وانجلترا في العصور الوسطى، نقلا عن النص الإسلامي فقد امتد التأثير العربي من بلاد فارس حتى إسبانيا، فقد سجل في بلاد الفرس ثماني عشر رواية، فأضفى الجامي على القصة لونا صوفيا وخيالا عرفانيا فبدت كأنها قصة جديدة.

4. نماذج تاريخية

وذلك حين تدخل نطاق الأدب على يد عباقرته، فتصبح قوالب أفكار عامة اجتماعية وفلسفية، وتكتسب طابعا أسطوريا، فتتسع للتعبير عن فلسفات مختلفة، وتكون منفذ لتيارات عالمية فنية وفكرية. ومنها شخصية ليلى والمجنون في الأدبين العربي والفارسي.

فحكاية "ليلى والمجنون" في الأصل حكاية عربية تنتمي من دون ريب إلى عصور ما قبل الإسلام، قد حظيت باهتمام بالغ في الآداب والفنون غير العربية، بل ربما لم تحظَ به أية قصة عربية سواها، فالثقافة الفارسية بالتحديد، كانت من أكثر ثقافات العالم اهتمامًا بهذه الحكاية شعرًا ورواية. وإذ نذكر فارس وثقافتها في هذا المجال يصبح لا بد لنا من أن نتوقف عند اثنين من كبار الشعراء الفرس اهتمامًا بحكاية "ليلى والمجنون"، واشتغلا عليها، وهما نظامي وجامعي: الأول خلال القرن الثاني عشر، والثاني خلال القرن الخامس عشر الميلاديين.

فالباحثون يذكرون أن "نظامي وجامعي اشتغلا على الحكاية نفسها من ناحية الأحداث، ولكن ثمة فارقًا كبيرًا بين عمل الأول وعمل الثاني: ذلك أن نظامي أعاد صوغ الحكاية كما هي؛ أي: إنه ركز على أحداثها الظاهرة وبُعدها العاطفي واقفًا مع حق الإنسان في الحب، مدينًا الأهل الذين سعوا كل جهودهم كي يحولوا دون تحقق اللقاء بين الحبيبين، أما جامعي فإنه استخدم الحكاية في صورة رمزية خالصة كي يتحدث من خلالها عن "الحب الإلهي" بصيغة صوفية.